وبهذا يكون بالزاك قد صب جام غضبه على نظام عصره وفساد طبقته. وإن العربتين الفارغتين اللتين أرسلهما كل من السيد «دي روستو» والسيد «دي نوسنجن» كي تشيعا جنازة صهرهما العجوز «غوريو» لهي أقوى سخرية استطاعها «بالزاك» وأبلغ تعبير عن مدى بشاعة تلك الطبقة وموت القيم الإنسانية فيها. وفي «أوجيني غرانده» نجد أنفسنا أمام أسرة ريفية تعيش في قرية «سومور» بفرنسا. ورب هذه الأسرة هو الأب «جرانده» البخيل الذي يعبد المال عبادة، ويعرف كيف يصطاده اصطياداً. إن «جرانده» يأخذ أخذ نمر وحية بواء. كان يعرف أن ينبطح، أن يربض، أن يترصد ملياً فريسته، وأن ينقض عليها.. ثم يضطجع مطمئناً كالحية، تهضم في سكينة، في برودة، في انتظام[٤٢].

كان جرانده صانع براميل، يكدح طوال يومه، ولكن الحظ واتاه فتزوج من امرأة غنية، واستطاع أن يستثمر مالها وأن يشتري أحسن حقول العنب بقرية «سومور»، تلك الحقول التي أخذت تدر عليه أموالاً طائلة كل عام. ولم يكن جرانده يشتري أي شيء من أجل معيشته، فقد كان مزارعوه يحملون إليه كل ما يكفيه من المؤونة الأسبوعية، من مثل الدجاج والزبدة والبيض والخضر والفواكه، والقمح الذي كان يطحنه في طاحونته. وقد كان «جرانده» يستغل هؤلاء المزارعين استغلالاً فادحاً، كما كان يحرم أسرته الصغيرة التي تتألف من زوجته وابنته «أوجيني» من كل ملذات الحياة بشحه، فقد كان يقتصد حتى في شراء الشمع لإنارة البيت، ويمنع إشعال النار في الردهة دون مراعاة لقرصات البرد[٤٣]. ولم يكن يسمح لهما بزيارة أحد أو استقباله ودعوته إلى الطعام. وكان «جرانده» بالإضافة إلى كل هذا يعامل خادمته «نانون» معاملة الرقيق تماماً؛ فقد كانت تشتغل في البيت من الصباح حتى المساء مقابل طعامها وارتدائها للملابس التي يُتخلى عنها[٤٤].

وللأب «جرانده» أخ في باريس يمنى بالإفلاس، ويعجز عن تسديد ديونه فينتحر، ويخلف ابنه الوحيد «شارل» بلا عون في الحياة. وقد ترك المنتحر